العوسجة

ـ لا أدري كيف طاوعتك أيها العجوز؟ تساءلت بينك وبين نفسك وأنت تدفن نفسك في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وهي تغفو إلى جوارك، وقد أنهكها السفر والتعب المضني، الركاب يخلدون إلى الصمت، بينما السيارة تسابق الريح على الطريق الثعباني الطويل متجهة نحو الغرب رددت بينك وبين نفسك:

ـ لقد أغدقت هي علي بحنانها ودفئها، هجرت أولادها من أجلي، دللتني في بيتها، عشت بين أحضانها كأمير متوج، مودعًا ليالي الحرمان والجفاف في ذلك المعسكر القاحل، والخبز اليابس والأوامر التي لا تنتهي، كانت تشتري لي الدخان والملابس الجديدة ..

تتذكر كيف كنت تقبع مع أسرتك في الغرب، وكيف التحقت بالعسكرية وأنت صغير السن بسبب الفاقة والفقر المدقع، حتى فوجئت ذات يوم بأن معسكرك سينتقل

إلى مدينة نائية في أقصى الشرق. ومضت سنوات نسيت خلالها أهلك هناك، حتى هبطت عليك فجأة أمك وهي تفتش عنك في هذه المدينة الصغيرة، ألست أنت فلذة كبدها؟ ما أن عثرت عليك حتى أخذت توبخك في حزن وغضب مرددة:

ـ ماذا تفعل مع هذه العوسجة الكبيرة؟ أنت يا بني مازلت في ربيع الشباب، وتحتاج إلى من يحمل اسمك من بعدك ويسند ظهرك عد معي لنزوجك من أصغر فتاة عندنا.

وظلت تنهال عليك بنصائحها ومواعظها حتى أقبلت زوجتك العجوز كانت عند أحد أقاربها، وفوجئت بأمك أمامها حتى دخلها الرعب والفزع، لكنها احتضنتها في ترحيب مصطنع، ربما هي قادمة للزيارة فقط، لكنها نذير سوء بالنسبة لها.

ولم تمض ساعات حتى كانت أمك تلملم أشياءها، وتنهض مقررة السفر والعودة، وأنت تنسحب خلفها

كالطفل الرضيع، وزوجتك تودعك عند الباب، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تهتف بك:

ـ إذا طالت غيبتك هناك لا تنسَ أن ترسل لي بورقة الطلاق ...